اللغة العربية

﴿ بحث تاريخي فلسفي ﴾

(في موطن العربية المضرية ونسبتها الى أخواتها من اللغات السامية) (*)

ايها السادة والسيدات . اللغة العربية فرع من اورمة تعرف بالاورمة السامية ومن فروع هذه الاورمة اللغات الآتية وهي : البابلية القديمة وتعرف بالاشورية أيضا ، والارامية (وهي السريانية) والعبرانية الفينيقية ، والحميرية ، والحبشية أو الاثيوبية . الا أن العربية من بين هذه الفروع هي أمدها أغصانا واملاها جذعا وأورفها ظلا وأنضرها أوراقا وأطيبها ثمرا يانعا شهيا

وعلماء اللغات الغربيون يقولون ان اورمة هذه الدوحة السامية انشعب منها فرعان اثنان فرع شمالي وفيه اللغة البابلية القديمة ، والارامية ، والعبرانية الفينيقية ، وفرع جنوبي وفيه العربية المضرية والسبئية والسقطرية والمهرية والاثيوبية (أو الحبشية)

وصحح العلامة أرثر نولدكي على ما في دائرة المعارف البريطانية الاخيرة سنة ١٩١١ هذا التقسيم فجعل اللغة البابلية القديمة فرعا مستقلا بنفسه وجعل الفرع الثاني ينشعب الى جذعين شمالي وجنوبي وجعل في الشمالي الارامية ، والعبرانية الفينيقية ، وجعل في الجنوبي العربية المضرية ، والسبئية ، والسقطرية ، والحبشية أو الاثيوبية

هذا ما يراه العلماء الغربيون في تقسيم اللغات السامية وتفرعاتها عن الام التي نشأت منها . ولهم في موطن هذه الام السامية الاصلي آراء ثلاثة الاول ان موطنها افريقيا ، والثاني انه العراق وما يجاور الخليج الفارسي من أعلاه الى اليمين والشمال ، والثالث انه شبه جزيرة العرب . أما الرأي الثاني فرأي العلامة الاستاذ جويدي صاحب المحاضرات المشهورة في الجامعة المصرية في العام الفائت . وأما الرأي الاول فالظاهر من كلام العلامة نولدكي انه من القائلين به أو الذاهبين اليه . وأما

(*) خطاب لصديقنا الاستاذ جبر افندي ضومط معلم اللغة العربية في المدرسة الكلية الامريكانية ببيروت ألقاه في تلك المدرسة ثم أنحفنا به

الثالث فيقول فيه هذا العلامة انه مما ذهب اليه فريق من العلماء الباحثين ولكنه لا يسمي أحدا من الذين يقولون به . ومع انه يقول في هذا الرأي ان عليه مسحة من القبول وفي الظواهر ما يعضده ، يعود فيعطف على مقاله هذا ما يشم منه تضعيفه والجرح فيه . راجع مقالة هذا العلامة النفيسة المدرجة في المجلد الرابع والعشرين من دائرة المعارف البريطانية الطبعة الاخيرة سنة ١٩١١ وجه ٦٢٠ الى ٦٣٠

﴿ عود الى تقريع اللغات السامية ﴾

قلنا ان علماء الغربيين يفرعون الدوحة السامية العظمى الى فرعين كبيرين شمالي وجنوبي ويشعبون من الفرع الشمالي البابلية القديمة والارامية والعبرانية الفينيقية ، ومن الجنوبي العربية العدنانية المضرية والسبئية والمهرية والسقطرية (نسبة الى مهرة وجزيرة سقطرة) والايثوبية ويندرج تحت الايثوبية الحبشية والامهرية. وقد ذكرنا أيضا تصحيح العلامة نولدكي لهذا التفريع أي انه جعل البابلية القديمة فرعا مستقلا بذاته وجعل ما سواها من بقية اللغات السامية في الفرع الثاني وشعب من هذا الفرع شعبتين أو جذمين شمالي وجنوبي على ما مر بنا

ولم أر سندا لما ذكره هذا العلامة الا ما بين اللغات من التقارب والمشابهات في الالفاظ المفردة والاشتقاقات الصرفية وما يلحق ذلك من التراكيب وأدوات المعاني ولاسيما أدوات وطرق التعريف والتنكير وقد أغفل الوجه التاريخي تمام الاغفال . والذي يظهر لي أن اغفال الوجهة التاريخية نقص في البحث وأنه لو تُنبه اليها وأضيفت ما تأخذها الى ما تأخذ الابحاث اللغوية الصرفة لكان فيما ينتج من مجموع وجهي البحث ما يضعف آراء القوم في التقسيم والتفريع ويضعف أيضا تصحيح العلامة نولدكي

وعندي أنه لو أضفنا الى ما نعرفه من التشابه والتقارب بين الالفاظ والمشتقات وضروب التراكيب النحوية والاضافية وطرق التعريف والتنكير ما نعرفه من النقول التاريخية والتقاليد العمومية المتعارفة لأدى بنا ذلك الى التقسيم الآتي وهو ان الدوحة السامية العظمى تنقسم الى فرعين كبيرين هما الفرع القحطاني

والفرع العادي ، وان الفرع الاول أي القحطاني انشعب منه الارامية والحميرية والحبشية ، وان الثاني أي العادي انشعب منه البابلية القديمة والعبرانية الفينيقية والعربية العدنانية المضرية . وأما السبئية التي يشير اليها العلامة نولدكي فان كان يراد بها لغة بلاد سبأ أي البلاد التي عاصمتها مأرب ذات السد المشهور فالتاريخ يعارض قول هذا العلامة وينافيه لانه يشير اشارة لا تقوى على معارضتها (إلى) أن لغة هذه البلاد كانت منذ الجيل الاول للمسيح لحد هذه الساعة لغة عربية مضرية وسنقيم الدليل على ذلك . وعليه فالارجح ان هذه اللغة السبئية التي يقولها هذا العلامة انما هي الحميرية القحطانية يخالطها شيء من العربية المضرية مما يتخيل معه انها شعبة من الجذم العربي العادي . وأما لغة مهرة وسقطرة فخليط من الحميرية والحبشية ولا يبعد أن يكون بين ألفاظها بقية كبيرة من اللغة السبئية العادية العدنانية التي زعمها العلامة نولدكي قسيمة للعربية وما هي قسيمة لها وانما هي لهجة أو لغة من لغاتها على الارجح

﴿ مهد اللغة السامية او وطنها الاصلي ﴾

قبل اقامة الدليل التاريخي على ما ذكرناه في شأن لغة سبأ أي انها لغة او لهجة من لهجات العربية وبعبارة أخرى ان أهل بلاد سبأ كانوا يتكلمون العربية المضرية من (زمن) سيل العرم الى الآن . وقبل أن اذكر الدليل في اثبات ان فرعي الامم السامية هما القحطانية والعادية ومنهما تفرعت بقية اللغات السامية الاخرى لابد لي من الرجوع الى الكلام عن موطن اللغة السامية الاصلي ومهدها الذي ربيت فيه فاقول :

وجدنا اللغات السامية في البلدان الآتية (١) في شمالي افريقيا على شواطئ المتوسط من الشام شرقا حتى تصل الى بوغاز جبل طارق والاتلانتيكي غربا ويشتمل ذلك على برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر وبلاد مراكش (٢) في مصر وما يليها جنوبا من بلاد الابيسينيو بين أو ممالك الحبشة (٣) في جزيرة العرب وما والاها من فلسطين وسوريا حتى تصل آسيا الصغرى (٤) في بادية الشام والعراق من راس الخليج الفارسي جنوبا حتى تصل الموصل وديار بكر شمالا ، وليس في التاريخ ولا في

الآثار ولا في التقاليد المتناقلة مايشير أدنى اشارة الى انها كانت في غير هذه البلدان

هذه هي البلدان التي عاشت فيها الامم التي تكلمت اللغات السامية لم يعرف عنها قط انها كانت في غيرها من البلاد اللهم الا حيث كانت المستعمرات الفينيقية لكنها لم تثبت هنالك بل انقرضت حالا عند انقراض المستعمرين وتغلب من حواليهم من الامم عليهم ، ولا شك ان مهد السامية لم يتجاوز البلدان التي ذكرناها ولا بد ان يكون في احداها ، وعلى هذا اجمع أرباب البحث من علماء اللغات والتاريخ قديما وحديثا على ما أعلم وهو ظاهر قول العلامة نولدكي ايضا

قلنا فيما مر ان هنالك آراء ثلاثة في موطن السامية ، الاول انه افريقيا والثاني انه جزيرة العرب والثالث انه العراق او اقليم بابل وما يليه من بلاد الاشوريين. فلننظر في كل من هذه الآراء واحدا واحدا ولا شك ان الرأي الذي تتوفر فيه الادلة التاريخية والعقلية هو أولى من صاحبيه بالقبول ، دعونا ننظر أولا الى بلدان شمالي افريقيا ونسأل تقاليد أهلها عن أصلها من اين جاؤا . ان البربر واعني بهم سكان شمالي أفريقيا من الذين كانوا يتكلمون باللغة السامية ولا يزالون يتكلمون بها الى الآن يرفضون بتاتا ان يكون أصلهم من زنوج افريقيا ويصلون انسابهم بأنساب العرب وأهل اليمن والشام ، والقول المعتبر في ذلك انما هو قول العلامة ابن خلدون صاحب التاريخ المشهور فراجع ماقاله في انساب البربر - المجلد السادس طبعة بولاق من صفحة ٨٩ الى ٩٨

ان الواقف على مايذكره هذا العلامة في انساب القوم لا يشك انهم جاؤا الى تلك البلاد الواسعة من الشام والبلاد العربية ، ولا أقول ان البربر استعمروا بلادهم ابتداء لم يكن فيها قبلهم أحد من الامم ولكني أقول ان هؤلاء الذين جاؤا البلاد ولغتهم من الدوحة السامية جاؤا من الشام وجزيرة العرب فتغلبوا مع الايام على أهل البلاد وصارت اليهم الدولة والسلطة واختلطوا معهم من غلبوهم بالزواج فصاروا من ثم جميعهم « الغالبون والمغلوبون » ينتسبون الى الامم التي كان منها الغالبون، لا أستطيع ان انقل كل ماذكره العلامة ابن خلدون في انساب البربر ولكني انقل ماجاء له في الجزء الثاني من تاريخه (وجه ١٠ طبعة بولاق) قال : قال ابن

حزم هو افريقش بن قيس بن صيفي اخو الحارث الرائش وهو الذي ذهب بقبائل العرب الى افريقيا و به سميت وساق اليها البربر من ارض كنعان مر بها عند ما غلبها يوشع وقتلهم فاحتمل الفل منهم فساقهم الى افريقيا فانزلهم بها — ولما رجع من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهم الى الآن بها وليسوا من نسب البربر ، قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين . انتهى النقل ، ويظهر من هذا الذي نقلناه ومن كثير أمثاله ان التبابعة أجلوا غير مرة العرب وأهل كنعان الى بلاد المغرب وأقاموا مهاجرا فيها قبائلهم من سبأ وحمير.

ولا احتاج ان أذكر جاليات الصيدونيين والصوريين الى تلك البلاد فان الحالية منهم التي استعمرت قرطاجنة ومن ثم صار لها الغلب على كل شمالي افريقيا سنينا طويلة هي اشهر من ان تذكر ، وكادت دولتهم هناك ان يكون لها الغلب على اشهر الممالك المعروفة حينئذ لو لم تسبقها رومية العظمى الى ذلك ، وبناء على هذا جميعه أعيد ماقلته من ان القلائد والتواريخ كلها تشير الى جهة واحدة وهي أن الامم السامية هم دخلاء على شمالي افريقيا وقد جاؤا الى هنالك من الشام وجزيرة العرب ، فليس شمالي افريقيا اذن موطنا للسامية ولا يعقل ان يكون هنالك أيضا

فرغنا الآن من الكلام عن شمالي افريقيا ، بقي علينا مصر والحبشة . أما مصر فلم أسمع عن ذهب الى انها موطن السامية الاصلي وهذا مما يضفي على الاطالة وأقامة الدليل على أمر يتنازع فيه ، ومع ذلك أقول ان الاثري والمؤرخ الشهير العلامة رولنسن يرجح أن التمدن المصري القديم ليس أصليا فيها انما جاءها عن العراق وبلاد العرب ، ومن المشهور في الآثار والتواريخ العربية ان دولة الرعاة في مصر وكانت سامية جاءتها من البلاد العربية ، بقي علينا بلاد الحبش — وعامة المحققين وعلماء اللغة لا يشكون في ان الحبشة هؤلاء أعني الذين يتكلمون بهذه اللغة السامية هاجروا اليها من البلاد العربية ، ومثل ذلك أقول في الامهريين إن لم يكن قد قيل فيهم ذلك من قبل ، والفرق بينهم وبين الحبشة ان الحبشة نزحوا جماعة كبيرة وأما أولئك فكانوا قلائل في العدد و باختلاطهم مع الزنوج غلبت عليهم وعلى لغتهم ملامح هؤلاء وألفاظ لغتهم وكثير من عاداتها وتراكيبها ولكن لم تقو لغتهم الزنجية

على ازالة الاصل السامي فبقي من آثاره مايدل عليه بعد التنقيب وامعان الروية ، وأرى أن العقل لايستطيع الحكم بأن هؤلاء الساميين بقوا ما بقوا في افريقيا وكانوا ما كانوا ثم خرجوا عن بكرة أبيهم من موطنهم الاصلي في بلاد الزنوج ولم يتركوا أثرا هناك يدل عليهم أصلا ، إن هذا الرأي لايقبل إلا مع البرهان الراجح إن لم نقل البرهان القاطع للشك والنافي للاحتمال

بقي علينا بلاد العراق من الخليج الفارسي الى الموصل وديار بكر . والباحثون على اتفاق بينهم ان الاشوريين جاؤا من بابل وان لغة الاشوريين ولغة قدماء البابليين واحدة ، والآثار البابلية تقول ان اصحاب آثارها من الذين تكلموا بهذا اللسان السامي لم يكونوا أصليين في البلاد وانما كان قبلهم قوم على جانب عظيم من التمدن وكان لهم لغة لكن من غير الاسرة السامية وعلى جانب من الارتقاء فلما تغلب عليهم هؤلاء الساميون اخذوا عنهم الكثير من آدابهم وترجموا لغتهم ومكتوباتهم الى لغتهم السامية ، والمأخوذ من هذا عقلا والواجب اعتماده أيضا ان الساميين أو السامية جاءت الى العراق وبابل من مكان آخر وكان أهلها غزاة فاتحين ولا أقرب الى العقل من ان يكونوا نزحوا الى هناك من الجزيرة العربية فان المشاهد والمعروف في كل العصور التاريخية الى الآن ان هؤلاء أعني أهل الجزيرة العربية كانوا يهاجرون من سائر أنحائها الى الشام والعراق ويستوطنون هناك تجارا أو زراعين يحرثون الارض ويربون المواشي واذا وجدوا فرصة للتغلب والتسلط على مجاوريهم انتهزوها

﴿ رجوع الى تقسيم اللغات السامية ﴾

(الاسرة السامية تنقسم الى فرعين : التعطاني والعادي)

ظهر لنا مما مرّ ان البلاد العربية هي موطن السامية والساميين اي المتكلمين بالسامية « سواء كانوا ساميين او حاميين في النسب » فلننظر الى ما في شبه جزيرة العرب من اللغات فان كان هناك لغة او آثار لغة واحدة لا غير فتلك اللغة هي الاسرة السامية الكبرى وان كان هناك لغتان فاللغتان هما الفرعان اللغويان انشعبا من الاسرة الكبرى

ان التقاليد العربية والتواريخ المكتوبة الباقية عندنا الى اليوم تذكر أن قد كان في شبه جزيرة العرب لغتان هما القحطانية والعادية . وان القحطانية كانت بين السريانية والعبرانية وهي اميل الى السريانية كما نرجح . وبيانه — قال المسعودي — وكان الهيثم بن عدي الطائي يقول اسماعيل تكلم بلغة جُرهُم لان اسماعيل كان سرياني اللسان على لغة أبيه خليل الرحمن حين اسكنهُ هو وامهُ هاجر بمكة على ما ذكرنا فصاهر جرهم ونشأ على لغتها ونطق بكلامها ونزار ثأبى ان يكون اسماعيل نشأ على لغة جُرهُم ويقولون إن الله عزّ وجل اعطاهُ هذه اللغة — الى ان يقول — ووجد نافلة ولد قحطان بخلاف لغة ولد نزار بن معد — ويقول — وقد وجدنا (قحطان) سرياني اللسان وولدهُ (يعرب) بخلاف لسانه . (راجع المسعودي جلد اول وجه ١٩٢ طبع المطبعة الازهرية المصرية سنة ١٣٠٣) . وقال العلامة ابن خلدون : واما جرهم فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية — وقيل انما نزلت جرهم الحجاز ثم بنو قطور بن كركر بن عملاق لقحط اصاب اليمن فلم يزالوا بمكة الى ان كان شأن اسماعيل عليه السلام ونبوتهُ فآمنوا به وقاموا بامره وورثوا ولاية البيت عنهُ حتى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة فخرجت جرهم من مكة ورجعوا الى ديارهم باليمن الى ان هلكوا (ابن خلدون جلد ثان وجه ٣٠ طبعة بولاق)

وقال العلامة ابن هشام انهم وجدوا في ركن الكعبة كتابا بالسريانية قرأهُ لهم رجل يهودي (راجع سيرة ابن هشام جزء (١) وجه ٦٦ طبعة بولاق)

يظهر من النقول التي اوردناها أن الامامين ابن خلدون والمسعودي متفقان على ان جرهم قحطانية وكانت ديارهم اليمن اولا (وهذا نص ابن خلدون) الا ان الامام المسعودي يقول ان لغة جرهم السريانية ، واما ابن خلدون فيقول إنها العبرانية ، وارى ان التوفيق بينهما اذا قلنا ان القحطانية اقرب الى السريانية منها للعبرانية سهل لانهُ يمكننا حمل العبرانية في كلام ابن خلدون على اللغة التي كان يتكلم بها اليهود في ايامه وهي السريانية او العبرانية البابلية . واذا كانت القحطانية هي السريانية القديمة او لغة قريبة منها فيترجح عندنا بل ينبغي ان تكون الحميرية التي خلفت

القحطانية وبقيت في الجزيرة العربية في اليمن الى الجيل الثالث بعد الهجرة — على ما نصه العلامة الهمداني (١) — قريبة من السريانية ايضا وارجح ان قد بقي اثر كبير من هذه الحميرية في مخلاف حضور وحوالي مدينة ظفار الى اليوم وفي الشحر وسواحل حضرموت ايضا

قلنا ان لغات شبه جزيرة العرب لغتان القحطانية الاولى وقد خلفتها الحميرية التي بقيت في اليمن الى الجيل الرابع بعد الهجرة على ما نص العلامة الهمداني كما اشرنا قبل الآن ، والعادية وهي العربية الاولى ، واهلها من عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق هم العرب العاربة وقد انقرضوا على ما يقولون وخلفهم العدنانيون او النزاريون في اغلب مواطنهم التي كانوا فيها وتكلموا بلغتهم . ولغتهم اي العدنانيين هي هذه اللغة العربية المضرية لغة القرآن والحديث والمعلقات وغيرها من الشعر العربي المشهور . ونسبتها الى العربية الاولى لغة عاد وثمود كنسبة الحميرية الى القحطانية الاولى على ما ارجح

دعوني انقل ما ذكره الطبري في هؤلاء العرب العادية وفي لغتهم ومواطنهم وساختصر في النقل ما استطعت . قال رحمه الله — فعليق ابو العماليق كلهم امم تفرقت في البلاد وكان اهل المشرق واهل عمان واهل الحجاز واهل الشام واهل مصر منهم . ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون ومنهم كانت الفراعنة بمصر ، وكان اهل البحرين واهل عمان منهم امة يسمون جاسم . وكان ساكنو المدينة منهم — واهل نجد منهم — واهل تيماء منهم . وكان ملك الحجاز منهم بتيماء واسمه الارقم وكانوا ساكني نجد مع ذلك — فكانت طسم وعماليق واميم وجاسم قوما عربا لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي — وولد ارم بن سام بن نوح عوص بن إرم وغاثر بن عوص وعاد بن عوص وعبيل بن عوص ، وولد غاثر بن ارم ثمود بن غاثر وجديس بن غاثر وكانوا قوما عربا يتكلمون بهذا اللسان المضري ، فكانت العرب تقول لهذه الامم العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون لبني اسماعيل بن ابراهيم العرب المنعربة لانهم انما

١) همداني وصف جزيرة العرب طبع ليدن وجه ١٣٤ — ١٣٦

تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهرهم . فعاد وثمود والعمالق واميم وجاسم وجديس وطسم هم العرب . فكانت عاد بهذا الرمل الى حضرموت واليمن كله ، وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى وما حوله ولحقت جديس بطسم فكانوا معهم باليمامة وما حولها الى البحرين واسم اليمامة اذ ذاك جو ، وسكنت بجاسم عمان فكانوا بها . (انظر الطبري مجلد ١ وجه ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٥ طبع ليدن)

يظهر مما نقلناه عن هذا المؤرخ الثقة الصلة التامة في اللغة بين هذه القبائل البائدة واشهرها عاد وبين القبائل العدنانية الباقية الى اليوم واشهرها كان بعد قريش قيس وتميم . ويظهر منه ايضا الصلة بين اهل نجد والحجاز وبين الكنعانيين في الشام فانهم جميعا من العمالقة . ومن الصلة بينهم في النسب نستنتج الصلة في اللغة وعليه فتكون العربية والعبرانية من فرع واحد لانها اي العبرانية الفينيقية والكنعانية من فرع واحد ان لم يكونا لغة واحدة . ويظهر منه ايضا البلدان التي احتلتها هذه القبائل فان عادا نزلت الاحقاف الى حضرموت واليمن كله ، وثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى ، وطسم وجديس اليمامة وما حولها الى البحرين ، وجاسم عمان والعمالقة نجدا والحجاز وتيماء ، فما كان صالحا للفلح والزرع فلحوه وزرعوه وما كان في طريق التجارة اقاموا فيه محطات لها من خليج فارس شرقا الى ايلة وبحر الشام ، غربا ومن حضرموت واليمن جنوبا الى برية الشام وفلسطين شمالا ، فكانت من ثم مواطنهم لذلك الحين من احسن النقط التجارية . ولذلك كثر غناهم وعظمت دولتهم واصبحوا مضرب مثل عند من خلفهم في الغنى والقوة والعظمة وتناقلوا عنهم لعظم آثارهم اخبارا هي اشبه باخبار القصاص الموضوعة للتسلية والاغراب منها بالاخبار الممكن ان تقع ، فانهم نسبوا معظمها الى الجن وتسخير القوات غير المنظورة كما نسبوا مثل ذلك الى بابل وتدمر وبعض آثار بابل واشور

(لها بقية)